عاشوراء

ياسين معيزو / المغرب

ولجنا المنزل ككل يوم عاشوراء، مبتهجين بما شاهدته أعيننا، من حركات بهلوانيي "السرك البلدي"، وأراجيحه الضخمة. ظللنا نتابع الركاب، باختلاف أعمارهم، وهم يرتادون حلقات الأراجيح في انتشاء، تغمرنا لهفة المحاولة. كانت بطوننا المملوءة، تتجشأ جوزا، ولوزا، وحلوى، وحبات الفول السوداني التي اختلسناها من "العربات" في غفلة من صاحبها. ظللنا نتابع الركاب صعودا وهبوطا، دون أن نكل أو نمل، ودون أن نحظى بتذوق لذة الصعود إلى الأعلى والتبول على أولئك الحمقى الكبار الذين لم يجدوا إلا في الأعياد أعيادا لتناسي شقائهم وتعاستهم الرتيبة طوال السنة.
عاينا أمي وهي تضع كيس المقتنيات بمكان بعيد عن متناولنا، وراحت تغير جلبابها الصوفي في الغرفة المقابلة للردهة. كانت أختي الصغيرة تنهمك في تزيين عروستها .. طفقت تمشط شعرها الأجعد في حنو، وتسألها عن ما إذا كانت تشعر بالجوع، فتقاسمها كسرة الخبز التي بحوزتها. في ما كان أخي الذي يكبرني مشغولا بإعداد خطته الموسمية لإنقاذ كيس المقتنيات من الموت وحدة بين صاج معدني وصفريّة نحاسية كان قد أهداهما الوالد لأمي يوم زفافهما. كانت أمي تقول: " إنهما أثمن هدية بالنسبة لي إلى جانبكم"؛ لذلك لم تكن لتستعين بهم في أشغال المطبخ، كما الحال بالنسبة للطنجرة والإبريق المهترئ اللذان كانت علاقتنا بهما متواصلة حتى خارج أوقات العمل.
لم تثن قطرات المطر أطفال الحي عن مزاولة نشاطاتهم اليومية، لا سيما بعد أن عززتها عاشوراء بلعب جديدة، خرجوا ليلتها من بيوتهم تباعا، وراحوا يتباهون بلعبهم غير المتكافئة.
تسللت إلى السطح في غفلة من أمي، استعنت بآجورة وصعدت فوقها لأشاهد، من أعلى، نصيب كل طفل من لعب عاشوراء، وربما كنت أفعل ذلك لأقيم درجاتها في سلم اللعب الأمتع، والأكثر حظا بالظفر بها. كنت أختار العلو، زاوية نظري التي أحب، والتي تمكنني من رؤية أشمل وأوضح، حتى أشن جام حقدي عليهم وعلى لعبهم التي لم أحظ بإحداها يوما.
لم يكن شقيقي يعير اهتماما بالذي أعيره حين لا أحظى كأقراني بما يحظون به، كان يكتفي في مناسبة كهذه بأن يلعب دور حارس مرمى إذا دعاه "نبيل" للعب بكرته الجلدية، أو يجسد دور المجرم الهارب من عدالة "منير" الذي يشهر في وجهه سلاحه البلاستيكي الجديد. لقد كان يحب مشاركة الآخرين أشياءهم، بسذاجة وعفوية. بينما كنت لا أرضى إلا بنصيب الأسد، وألا أهنأ إلا بعد أن تصير الأشياء تحت إمرتي، وفوق مداري الجوي.
كل الأفكار الماكرة التي راودتني، لم تكن لتتعدى سقف منزلنا العتيق أو لتصبح واقعية قابلة للتنفيذ. ما جال في خاطري لا يعدو أن يكون تدبير مكائد لأقراني لتعطيل لعبهم أو إتلافها؛ كنت تارة أفكر في السرقة، وألعن التوزيع غير المنصف للأسر تارة أخرى، دون أن أستثني من أفراد أسرتي أحدا.
حل عيد المولد، ولم تصدر من منزلنا رائحة مرق الدجاج الشهي، كتلك التي من منزل "منير" تنبعث. عزفت عنا تلك الرائحة مرة أخرى في ليلة القدر .. مرة الشهور كسابقاتها إلى أن حل عاشوراء من جديد .. ولجنا المنزل.. صعدت الدرج بخطا واثقة نحو السطح .. صرخت أمي:"عد أيها المسطول!؟". وقفت فوق الآجورة .. بدأت أقيم لعب الأطفال، كما أفعل كل سنة، شننت حقدي عليهم وعلى لعبهم التي لا زلت لم أحظ بإحداها بعد، ولا زال نبيل يتربع على قائمتها، وشقيقي الأكبر لا يزال، أيضا، فارا من عدالة منير. جالت الأفكار الماكرة مرة أخرى .. فكرت في السرقة ..دبرت المكائد.. لعنت التوزيع الظالم للأسر .. وأرباب الأسر .. استثنيت هذه المرة من أفرادها والدي.